

الدين في منظور تاريخ الأديان

د. محمد حسين فنطر

المشرف على كرسي بن علي لحوار

الحضارات والأديان

ومدير بحوث بالمعهد الوطني

للتراث

لقد عثر في ضواحي مدينة القتار، قرب قفصة، جنوب غربي البلاد التونسية، على رجم من حجر مصقول، والرجم كوم من تراب أو من حجر يكون على شكل مخروط أو هرم. يعود هذا الرجم إلى سلالة نياندرتال : فهو يرقى إلى ما ينيف عن 45 سنة قبل ميلاد المسيح عليه السلام. أقامته مجموعة بشرية لما تستكمل إذ ذاك إنسانيتها ومعنى ذلك أنها لم تتأدم بعد، بل كانت في طريقها إلى التأديم⁽¹⁾.

لماذا فعلت ذلك ؟ فما هي الرسالة من وراء ذلك الرجم ؟ سؤال عسير قد يبقى مطروحا ! على أن الأثاريين الذين تولوا تعريته تمكنوا من تشخيص سلائق عين ماء كانت في ذلك الزمن جارية. وافترضوا أن بين الرجم وعين الماء صلة فرجحوا أن المجموعة البشرية التي شيدت الرجم أيقنت أن حياتها مدينة لتلك العين : فهي التي بمائها المتدفق تضمن أسباب الحياة. فكان لا بد من التعبير عن مشاعر الامتنان لعين الماء أو للقوة التي

(1) Gruet (M.), «Le gisement moustérien d'El- Guettar», dans Karthago, V, (1) 1954, pp. 3-71.

وفرتها وسخرتها. وفي التعبير عن الامتنان اعتراف بالقوة. ثم لا بد من استدرار عطفها حتى تواصل العين تدفقها ماء به يستقيم العيش.

يعتبر هذا الرجم من أقدم العبارات الدينية التي عرفت البشرية. وفي تلك العبارة تجسيد لسعي الإنسان إلى ربط الصلة بينه وبين قوة يلمس كينونتها في محيطه ومن خلال تجاربه الحياتية. فهو يشعر بوجودها ويقف على مظاهر فعلها وتأثيرها، لكنه يلمس الفعل ولا يرى الفاعل رؤية مادية. فالفاعل ظاهر والفاعل خفي. ومن هنا تأتي قضية الظاهر والباطن. والدين، في منظور تاريخ الأديان، يتمثل في سعي الإنسان إلى ربط الصلة بالقوة التي تسكنه وتقض مضجعه، يخافها ويستغيث بها عبر حركات وأقوال ومواقف تسمى العبادة⁽²⁾.

وتعاقبت السلالات البشرية واستكمل الإنسان إنسانيته أو قل تأدم وصار يبحث عن تجسيد تلك القوة الجبارة التي صورت الكون والإنسان وقذفت فيه الوعي فبات يتصور ويخاف ويأمل. فصور القوة آلهة وآلهات ليعبدها⁽³⁾ فالعبادة تجسيد للصلة التي تربط بين العابد والمعبود⁽⁴⁾. ولكن لنواصل الرحلة بحثاً عما يجسد تلك الصلة التي

(2) Emile Littré, Dictionnaire de la langue française t.2, Paris, 1960, S.V. culte.

Dictionnaire encyclopédique de la Bible, éditions Brépols, Turnhout- Paris, 1960, S.V. culte.

(3) Agnès Spycket, Les statues de culte dans les textes mésopotamiens, des origines à la 1ère dynastie de Babylone, Paris, 1968, p.7 où nous lisons: "Il a été généralement admis par les spécialistes du Proche-Orient ancien que les dieux mésopotamiens avaient été représentés très tôt sous forme humaine et qu'ils étaient adorés dans les temples sous l'aspect d'une statue de culte, placée dans une niche de la cella".

A.L. Oppenheim, Ancient Mésopotamie, Chicago, 1964. pp. 177 et suiv.

(4) G. Van Der Leew, La religion dans son essence et ses manifestations, (4) Paris, 1948.

نسميها دينا⁽⁵⁾ كما نسمي القوة قدسا. القدس (بقاف مجرورة ودال ساكنة) مصطلح نقترحه لتسمية تلك القوة التي تتجاوز الإنسان والمادة كما يتجاوز الصانع صناعته والخالق خليقته. فالقدس لفظة نستخدمها لتعريب ما تشير إليه اللفظة الفرنسية **Le sacré**.⁽⁶⁾ فهناك فرق كبير بين مفهوم القدس (بالقاف المجرورة والدال الساكنة) ومفهوم القدس (بقاف مرفوعة ودال ساكنة) وهو فضاء مقدس⁽⁷⁾.

ففي مدينة سوسة كشف الغطاء عن قدس (بعل بقاف مرفوعة ودال ساكنة) وهو معبد معروف بإسم التوفاة⁽⁸⁾. وقد تم العثور على أطلاله في الفضاء الذي يحتضن اليوم الرباط والجامع الكبير، وإستنادا إلى لقي عديدة من أنصاب ونقائش وغيرها، ثبت أن ذلك المعبد أقيم لعبادة الإله بعل والربة تانيت وكلاهما من كان القرطاجيون والبنونيون يعبدون⁽⁹⁾.

(5) La racine sémitique DNN évoque la notion de puissance : David Cohen et autres, Dictionnaire des Racines sémitiques ou attestées dans les langues sémitiques, 4° fascicule, Peeters, 1993, P. 283, S.V. DNN.

محمد حسين فنطر : دين مجلة الفكر السنة 25 العدد 9 جوان 1980 ص 35 - 37.

(6) Jean - Jacques Wunenburger, Le Sacré, (Que-sais-je?), Paris, 1981, notamment p.3 où nous lisons: «La notion de Sacré semble inséparable de l'expérience et de l'institution du religieux, c'est-à-dire des relations de l'être humain avec un plan de réalité suprasensible, invisible, le divin.....Néanmoins, comme l'a avancé Mircéa Eliade, le Sacré peut être considéré comme une modalité de l'Homo religiosus universel». Voir aussi Mircéa Eliade, Le Sacré et le profane, Paris, 1965.

(7) Pour désigner un espace sacré, les langues sémitiques utilisent, entre autres vor... et mqds qui correspondent à l'arabe مقدس et مقدس

(8) Ce nom est emprunté à l'Ancien Testament : voir II Rois, XXIII, 10 où nous lisons: « Il profana le Tophet dans la vallée de Ben -Hinnom.» Jer., VII, 32 et XIX, 12-13.

(9) Pierre Cintas, Le Sanctuaire punique de Sousse, Extrait de la Revue Africaine, N° 410-411, 1947. Pour le culte de Baal Hammon et de Tanit, voir Mhamed Hassine Fantar, Carthage, approche d'une civilisation, Tunis, 1993, vol.2, pp. 251-285. Idem, " Le Tophet de Salambo", dans L'Afrique du Nord antique et médiévale : Mémoire, identité et Imaginaire : Actes des journées d'études organisées par le GRHIS Université de Rouen 28 Janvier 1998 et 10 Mars 1999, pp. 13-24.

ومعلوم أن المعابد لا تقام إلا في أماكن اصطفاها القدس، تلك القوة الجبارة التي ذكرناها وقد يوحي القدس بذلك الاختيار عن طريق التجلي أو بظهور علامة تعتبر رسالة قدسية. فالقدس قوة بدونها ينعدم الوجود وهي القوة العظمى التي بها يستطيع الإنسان فهم الكون والكينونة وقد تكون حياة أو موتاً، ومعنى ذلك أنها تحيي وتميت. فهي خير وشر. ففي اللغات الغربية تسمى Le sacré وكانت بعض قبائل بولينيزيا تسميها **Mana** ⁽¹⁰⁾ ودخل الاسم البولينيزي لغة مؤرخي الأديان. وقد يتجلى القدس في فضاء ما فيصبح مقدساً وقد ينصب القدس في حجرة أو في شجرة أو في حيوان أو في بعض مظاهر الطبيعة كالشمس والقمر والبحر وغيرها.

فاختيار مكان لإقامة معبد يكون استجابة لمشيئة القدس. ولقد أشارت إلى ذلك النصوص المقدسة والأساطير : ففي الفصل الثامن والعشرين من سفر التكوين ورد ما يلي :

«وخرج يعقوب من بئر سبع ومضى إلى حاران. فصادف موضعاً بات فيه إذ غابت الشمس فأخذ حجارة وضعها تحت رأسه ونام في ذلك المكان. فرأى حلماً كأن سلماً منتصباً على الأرض ورأسها إلى السماء وملئكة الله تصعد وتنزل عليها وإذا الرب واقف على السلم فقال : أنا الرب، إله إبراهيم أبيك وإله إسحاق. الأرض التي أنت نائم عليها، لك أعطيها ولنسلك.

(10) Robert J.Schreier, Mana, dans Paul Poupard, Dictionnaire des religions, Paris, 1984, pp. 1018-1019 (avec une bibliographie).

ويكون نسلك كتراب الأرض، وتنمو غربا وشرقا وشمالا وجنوبا . ويتبارك بك جميع قبائل الأرض وبنسلك. وها أنا معك، أحفظك حيثما اتجهت. وسأردك إلى هذه الأرض. فإني لا أهملك حتى أوفي لك بكل ما وعدتك. فاستيقظ من نومك وقال : إن رب لفي هذا الموضع وأنا لم أعلم. فخاف وقال : ما أهول هذا الموضع ! ما هذا إلا بيت إيل. هذا باب السماء. ثم بكر يعقوب في الغداة، وأخذ الحجر الذي وضعه تحت رأسه وأقامه نصبا وصب على رأسه دهنا. وسمى ذلك الموضع بيت إيل، وكان اسم المدينة لوز، ونذر قائلا : إن إليهم كان معي، وحفظني في هذا الطريق الذي أنا سالكه، ورزقني خبزا أكله، وثوبا ألبسه، ورجعت سالما إلى بيت أبي. يكون الرب لي إلها، وهذا الحجر الذي جعلته نصبا، يكون بيت إيل. وجمع ما ترزقنيه، فإني أعشره لك تعشيرا.

وهناك فضاءات يقر القدس قداستها : فلنستمع إلى آيات بينات من سورة طه.

«وهل أتيتك حديث موسى إذ رءا نارا فقال لأهله أمكثوا أني انست نارا لعلي ءاتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدى فلما آتيتها نودي يا موسى إني أنا ربك فاخلع نعليك إنك بالواد المقدس طوى وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى..»

فلا شك ان اختيار المكان الذي أقيم فيه توفاة سوسة لم يكن اعتباطيا بل أقره رجال الدين إستنادا إلى تجربة أو توصية تعتبر قدسية. وتعاقبت الأجيال والنظم والأديان، وبقي المكان مقدسا : فاندثر التوفاة البونوي وخلفه معبد روماني. ولما أفل نجم الأمية في أفريقية وانتشر دين المسيح، أقيمت في المكان نفسه كنيسة. ثم لما كان الفتح، وأشعت نورانية الإسلام، اختير المكان لإقامة رباط يعلوه مسجد يصلي فيه المرابطون.⁽¹⁾ واختير الفضاء نفسه لبناء الجامع الكبير⁽²⁾ وهو من المعالم الدينية التي تحتل بها المدينة في ظل دولة بني الأغلب وقد تبوأ عرش افريقية من نهاية القرن الثامن إلى العقد الأول من القرن العاشر ميلاديا. وتولت الأسر التي تعاقبت على العرش توسيعه وترميمه.

ففي ضوء ما سبق، نتبين أن الظرف ما انفك يتغير بتغير الظروف لكن المكان حافظ على قداسته : فكان التوفاة فالمعبد الروماني فالكنيسة فالرباط ثم الجامع الكبير: إنها ظروف معمارية تختلف الأبعاد فيها والأشكال والأحجام والألوان، فضلا عن مادة البناء والتقنية. وتنم تلك الظروف المتعاقبة المختلفة عن تباين العبارة الدينية حركة كانت أو كلمة، كما تنم عن تجديد الشعائر والطقوس. أما المظروف، وهو القدس، فيبقى ثابتا لا يعبأ بتغيير الظروف : ذلك أن المظروف جذري أو قل جوهرى أزلي، أما الظرف فهو حدث عابر. فلا بد من النظر مليا في مثل هذا اللقاء

(1) Alexandre Lezine, Le Ribat de Sousse, Tunis, 1956.

(2) Alexandre Lézine, Sousse, les monuments musulmans, S.D., pp.35-41 .

Idem, Deux villes d'Ifrîqiya, Paris, 1970, pp. 14-75.

بين الحادث والأزلي أو قل بين الحل والقدس (بقاف مجرورة ودال ساكنة).

فلا شك أن قضية لقاء القدس بالحل خطيرة : فكيف يتسع الحل للقدس أو قل كيف يتفاعل الحل مع القدس ؟ وكيف يتراشحان أو يتناحان ؟ القضية خطيرة لأنها تطرح إشكالية التأويل والتفسير. فكيف يمكن الوقوف على مظروف قدسي وهو في ظرف حلي ؟ وقد يكون الظرف كلمة أو صورة أو أسطورة. فلقد نزل القرآن الكريم في ظروف متداولة تعرفها القبائل العربية منذ أقدم العصور ولعل بعض تلك الظروف كان مشاعا بين غالب الشعوب السامية أي تلك التي عمرت ربوع الشرق القديم من وادي الرافدين إلى البحر الأحمر مروراً بالجزيرة العربية شمالها وجنوبها⁽¹³⁾.

ولم تكن تلك الشعوب السامية منعزلة مغلقة بل كانت متفتحة أخذاً وعطاءً على شعوب أقطار مجاورة لها كمصر والفرس وبعض المناطق الإفريقية والآسيوية. وقد تتلاقى الشعوب في طرح القضايا التأسيسية. إن الأمثلة في ذلك عديدة ومنها قصة خلق الإنسان. يطول الحديث حول هذا الموضوع وهو من تلك التي تناولتها أساطير الأولين، والأسطورة هنا تعني ما سطر على الرقم والرقم جمع رقيم وهي ألواح من طين يسطر عليها الساطرون نصوصهم مهما تعددت أغراضها وأشكالها وأحجامها ثم

(13) Pour les peuples Sémitiques, voir Sabatino Moscati, Histoire et civilisation des peuples sémitiques, Paris, 1955, André Caquot, «Sémites» dans Encyclopédia Universalis, t. XIV, Paris, 1972. p. 865-868.

تفخر في تنور لتكتسب صلابة تمكنها من الصمود والبقاء : (14) تلك هي

أساطير الاولين (15).

(14) James G. Février, Histoire de l'écriture, Paris, 1959, pp. 99 - 114.

(15) اعتقد أن كلمة أسطورة مشتقة من مادة سطر التي تشير أو تحتضن معنى الكتابة فقولك سطر يعني كتب وتبين ذلك من قوله تعالى والطور وكتاب مسطور في رق منشور. ونجد ذلك في سورة القلم قوله عز وجل : ن والقلم وما يسطرون. على أن فضيلة الشيخ الطاهر بن عاشور نحا بالأسطورة نحواً آخر: ففي تفسير للآية الخامسة والعشرين من سورة الأنعام كتب مايلي :

«والأساطير جمع أسطورة (بضم الهمزة وسكون السين) وهي القصة والخبر عن الماضي. والأظهر أن الأسطورة لفظ معرب عن الرومية: أصله إسطوريا - بكسر الهمزة - وهو القصة. ويدل لذلك اختلاف العرب فيه. فقالوا : أسطورة وأسطيرة وأسطور وأسطير. كلها (بضم الهمزة) وإسطارة وإسطار (بكسر الهمزة). والاختلاف في حركات الكلمة الواحدة من جملة أمارات التعريب. ومن أقوالهم : أعجمي فالعب به ما شئت. وأحسن الالفاظ لها أسطورة لأنها تصادف صيغة تغيد معنى المفعول. أي القصة المسطورة. وتفيد الشهرة في مدلول مادتها مثل الأعجوبة والاحدثة والأكرومة. وقيل : الأساطير اسم جمع لا واحد له مثل أبابيل وعباديد وشمايط. وكان العرب يطلقونه على ما يتسامر الناس به من القصص والأخبار على اختلاف أحوالها من صدق وكذب. وقد كانوا لا يميزون بين التواريخ والقصص والخرافات فجميع ذلك مرمي بالكذب والمبالغة. فقولهم : إن هذا إلا أساطير الأولين. يحتمل أنهم أرادوا نسبة أخبار القرآن إلى الكذب على ما تعارفوه من اعتقادهم في الأساطير. ويشتمل أنهم أرادوا أن القرآن لا يخرج عن كونه مجموعة قصص وأساطير. يعنون أنه لا يستحق أن يكون من عند الله لأنهم، لقصور أفهامهم أو لتجاهلهم. يعرضون عن الاعتبار المقصود من تلك القصص وأخذونها بمنزلة الخرافات التي يتسامر الناس بها لتقصير الوقت. وسيأتي في سورة الأنفال أن من قال ذلك النضر بن الحارث. وأنه كان يمثل القرآن بأخبار (رستم) و(اسفنديار). (انظر التحرير والتنوير، الجزء السابع. الدار التونسية للنشر، تونس : سنة 1984، ص 182).

فواضح أن صاحب التحرير والتنوير ينسب كلمة أسطورة إلى أصول رومية حيث يقول عنها لفظ معرب عن الرومية. لماذا نحا هذا النحو؟ قد يكون تأثر بما افترضه كازيميرسكي من علاقة بين أسطورة واللفظ الإغريقي هستوريا Historia. أورد المعجمي البولوني تفسيره افتراضاً بعيداً عن القطع. والجدير بالإضافة في هذا الشأن أن كلمة هستوريا في اللغة الإغريقية تعني التحقيق والبحث عن الحقيقة أو عن الواقع المعيش وهو ما فعله هيرودوتس في تصانيفه حول الفرس والإغريق والأقوام المجاورة لهم. فالأرجح أن الشيخ الطاهر بن عاشور نقل هذا التأويل عن العالم البولوني كازيميرسكي. ثم نحا آخرون هذا المنحى ومنهم الدكتور عبد المجيد الشرفي الذي يراها تعريباً للفظ الإيطالي storia مع العلم أن هذه الكلمة الإيطالية حديثة بالنسبة إلى لفظ أسطورة الوارد في القرآن. بما يثبت أنه كان معروفاً ومتداولاً عند العرب قبل الرسالة المحمدية أي في زمن لم تكن فيه اللغة الإيطالية معروفة. ودون ما دخول في تفاصيل تاريخ اللغة الإيطالية. اقترح، شخصياً، إرجاع لفظ أسطورة إلى مادة سطر. ومثل هذه القضايا المتعلقة بتاريخ اللغة يثبت ضرورة وضع معجم تاريخي للسان العرب. قد يبدو ذلك عسيراً : ولكن بالإيمان والعزيمة يمكن إدراك الهدف مهما كانت المسافات والعقبات. ويصح أن نقول مقالته علي بن أبي طالب : هم رجال ونحن رجال.

ما انفكت قضية خلق الإنسان ومصيره تشغل الإنسان وتقض مضجعه ضمن قضية أخطر، تلك التي تتعلق بالكون ونواميسه وتصريف دواليبه والسهر على شؤونه. لقد تعددت الأساطير حول هذه المسألة وتباينت بتباين المكان والزمان والأقوام.

ففي سومر، جنوب وادي الرافدين، نشأت أساطير مضمونها أن الإنسان انجبته الأرض وقد أخصبتها السماء فيبدو الإنسان من بناء الأرض والسماء . وفي أسطورة أخرى، نشأت في مدينة نفر **Nippur**، نرى الإله إنليل **Enlil** يخلق الإنسان تسوية بيديه حتى كأنه الفاخوري. وفي مدينة إيريدو **Eridou** أسطورة ثالثة مضمونها أن الآلهة تكاثرت وأصبحت غاضبة عن وضع يفرض عليها توفير ما قد تحتاجه. وفي الحاجة فقدان للحرية والسيادة. فتفاديا لذلك، طلبت نمو من ابنها أنكي **Enki** أن يفعل شيئا حتى تتخلص الآلهة من نير العبادة، والعبادة هنا من عبد يعبد أي عمل يعمل فالعبادة في السياق تعني العمل وفي العبادة عبودية⁽¹⁶⁾.

ومن الأساطير التي تناولت خلق الإنسان أسطورة أترامسيس وقد أفردت لذلك الحدث الخطير فصلا من فصولها تعرض للأسباب والملابس التي أفرزته وبه حفت : ففي البداية إشارة إلى الهموم التي كان الآلهة يشكونها متضجرين حتى أدرك الوضع درجة من التوتر تهدد بالفوضى والتناحر والتمرد والانتفاضات، فكان لا بد من تدبير الأمر.

فتح أيا فاه وقال للآلهة إخوته
بما نستطيع اتهامهم ؟

(16) René Labat et autres, Les religions du Proche-Orient, textes et traditions sacrées babyloniens, ougaritiques et hittites, Paris, 1970, pp. 26-70.

طه باقر : ملحمة كلكامش، بغداد 1980 ص. 219 - 227.

إن عملهم شاق وضاق بهم ذرعا
يحفرون الأرض كل يوم
وهم يشكون حظهم ويتأوهون
ولكن هل من دواء لعلهم ؟

بعلة إيل الوالدة هنا
فلتخلق كاننا آدميا ! فلتخلق آدم.
حتى يحمل النير ويخلص الآلهة منه

فنادوا الإلهة مامي الحكيمة :
أنت أيتها الوالدة! أنت التي ستخلقين البشر
اخلقي آدم ليحمل النير،
ليحمل نير العمل.

فتحت ننتو فاما وقالت للآلهة العظام :
ليس علي القيام بذلك
إنه عمل من مشمولات أنكي
فهو الذي يطهر كل شيء
فليعطني طينا حتى أباشر العمل

فتح أيا فاه وقال للآلهة العظام
في مطلع الشهر، وفي السابع والخامس عشر منه
أحضر حماما للطهارة
وليجزر إله
وليطهر الآلهة انغماسا فيه

وبلحم هذا الإله ودمه
لتخلط ننتو طينا
حتى يكون الإله والإنسان معا في الطين مزيجا
ولما جبلت ننتو ذاك الطين
نادت كبار الآلهة وهم الأنوناكيم
والإيجيجيم. فتفلوا في الطين.
وعند ذلك فتحت مامي فاما وقالت لكبار الآلهة :
أمرتموني أن أعمل عملا فها قد أتمته
لقد جزرتم إلها عقله فيهم
أزلت عنكم عملكم وهو عمل شاق شاق
ووضعت عنكم وزركم. وعلى الإنسان ألقيته
أنتم! ها قد خلعت عنكم النير وحررتكم.
فلما سمع الآلهة قولها، أتوا معية يهرولون وقبلوا رجليها
كنا نسميك مامي فليكن الآن اسمك «ملكة الآلهة جميعهم»
وعند ذلك الى بيت القدر دخل
الأمير أيا والحكيمة مامي
ولما تجمعت الوالدات
ودسن الطين حتى أتاهن المخاض
ما انفكت مامي تقذف العزائم
كلمات كان أيا يلقنها إياها وهو جالس قبالتها
ولما فرغت من تعزيمها، قطعت أربع عشرة قطعة من طين
ونصتها سبعا على اليمين وسبعا على اليسار
وجعلت بين المجموعتين آجرة
 واجتمعت الحكيمات العالمات والوالدات سبعا سبعا :

فسبع أنجبين ذكورا
وسبع أنجبين إناثا

فلما انتهين من الوضع زوجا زوجا
خلقت مامي نواميس البشر

تلك خلاصة مختزلة للفصل الذي تناولت فيه أسطورة أترامسيس
قضية خلق الإنسان وفيها جواب عن سؤالين خطيرين هما: كيف خلق
الإنسان ؟ ولماذا ؟

وورث البابليون الأسطورة واقتبسوا منها أخرى لهم : فالخالق عندهم
يسمى مردوخ : لقد جمع الآلهة العظام وطلب منهم الكشف عن الذي أثار
حفيظة تيامة حتى كانت الفوضى والمعارك الطاحنة. فأجابوه إنه كنجو.
فقبضوا على كنجو وفي سلسلة سلوكه ثم قتل، ومن دمه خلق أيا البشر
وفرض عليهم خدمة الآلهة.

ومن بابل الى دنيا بني اسرائيل والتوراة : ففي الآية السابعة من
الفصل الثاني من سفر التكوين جاء ما يلي :

وإن الرب الإله جبل الإنسان ترابا من الأرض ونفخ في
أنفه نسمة حياة فصار الإنسان نفسا حية

وتناول القرآن قضية خلق الإنسان في آيات عديدة منها ما
تضمنته سورة الحجر (17) :

وإذ قال ربك للملائكة إني خالق بشرا من صلصال من
حمأ مسنون فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له

(17) سورة الحجر: الآيات 28 - 35.

ساجدين فسجد الملائكة كلهم أجمعون إلا إبليس أبى أن يكون من الساجدين قال يا إبليس ما لك ألا تكون من الساجدين قال لم أكن لأسجد لبشر خلقتة من صلصال من حمأ مسنون قال فاخرج منها فإنك رجيم وإن عليك اللعنة إلى يوم الدين.

فواضح أن القرآن وظف الأسطورة السومارية الأكادية البابلية التوراتية ظرفاً ضمنه قضية خلق الإنسان. أما عن الظروف، فعلى المفسر البحث عنه ومحاولة إدراكه. فالظرف المستخدم في القرآن له علاقة متينة بالظرف الذي ورد في ما يمكن أن نسميه أساطير الأولين : فنجد هنا وهناك الطين أو الصلصال ونجد النفخ ونجد أن الإنسان خلق ليعبد الآلهة أو ليعبد الله. وترى الإنسان، في مختلف هذه الرؤى، ثنائي الطبيعة. فالطين من عالم الحل، والروح (ونفخت فيه من روحي) تنتمي إلى عالم القدس.

ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً. (18).

ولنتذكر أن الإنسان السوماري الأكادي البابلي خلق هو الآخر من طين مخلوط بدم إلهي : ففيه يلتقي الحل بالقدس وفيه يلتقي الخير بالشر والجميل بالقيح.

ومن الظروف القديمة التي استعملها القرآن ووظفها طبقاً لتصور جديد، تجدر الإشارة إلى الكعبة وهو البيت الذي كان مفتوحاً لآلهة العرب قبل الإسلام ومنها الالة والعزة ومناة. ثم حولها الإسلام إلى بيت الله الحرام.

(18) سورة الإسراء : الآية 85.

ومن التوراة اقتبس إسم جهنم وهو إسم يتركب من كلمتين عبريتين: الأولى «جي» وتعنى الوادي المنخفض بين جبلين أو ربوتين. أما الكلمة الثانية، فهي إسم علم «هنم». فلقد أورد التوراة «جيهنم»⁽¹⁹⁾ بمعنى وادي هنم، ولئن اقتبس هذا الإسم فذلك لأن جي هنم في التوراة واد كان يوجد بجنوب يروشليم وكانت فيه نار موقدة تلقى فيها القرايين. وبعد اختفاء تلك الشعيرة بات سكان المدينة يتخلصون من فضلات المدينة ونفاياتها رميا في تلك النار الموجهة في جي هنم أي في وادي هنم. فجهنم التي أشار إليها القرآن الكريم مطروف قرآني في ظرف توراتي كنعاني الأصول.

ومن الظروف التي وفرها المحيط المعاصر لنزول الوحي على الرسول صلى الله عليه وسلم تجدر الإشارة إلى الدراهم «وشوره بضمن بخص دراهم معدودة وكانوا فيه من الزاهدين»⁽²⁰⁾ وفي العهد القديم أوردت الآية الثامنة والعشرون من الفصل السابع والثلاثين من سفر التكوين «باعوه للاسمعييلين بعشرين ثقلا من الفضة».

فالدراهم ظرف قديم مستعار⁽²¹⁾. ولئن وظفه القرآن، فذلك لأن العرب كانوا يعرفون الدراهم عن طريق الروم واستخدموه في تجارتهم

(19) جي هنم انظر : سفر يهوئيل. الإصحاح الخامس عشر. الآية الثامنة.

(20) سورة يوسف الآية 20.

(21) الدراهم من النقود الإغريقية التي تبنتها دول مختلفة من البيزنطيين إلى عرب الجزيرة، شمالا وجنوبا مروراً بالفرس. ومعلوم أن هذه العملة الإغريقية لا ترقى إلى ما قبل القرن السادس قبل ميلاد المسيح. فمن درهما الإغريقية ولد لفظ درهم.

Pour l'histoire de la monnaie, voir Jean Babelon, La Numismatique antique (Que-sais-je?) Paris, 1970.

ومن أقدم النصوص المعروفة التي أوردت لفظ درهما تجدر الإشارة إلى هيرودوتس تاريخ: السفر السابع، الفقرة 144 حيث نقرأ مايلي : «ولما كان بيت مال الأثينيين تزخر فضة آتية من مناجم لوريون. كان لكل واحد الحصول على عشرة دراهم». هذا نص يعود إلى القرن الخامس قبل ميلاد المسيح. ولكن متى ولد لفظ درهما ؟ سؤال تعسر الإجابة عنه، لاسيما وقد أشار إلى وزن قبل أن تتسمى به قطعة نقدية.

داخل الجزيرة وخارجها. ومعلوم أن الكلمة من أصل يوناني. وقد تناول بعض المفسرين قضية الدراهم معتقدين أنها كانت موجودة في زمن يوسف عليه السلام. والثابت أنها لم تكن معروفة في ذلك الزمن السحيق بل هي من تلك الظروف التي ضمنها القرآن مظلوماً يختلف عن ذاك الذي كانت تضمه عند العرب خلال القرن السابع ميلادياً.

هكذا نتبين أن على المفسر تجاوز المظروف المعروف لدى القبائل العربية أيام النزول. فلا حرج أن نقول : ليست الدراهم القرآنية دراهم بالمعنى العربي البنظي⁽²²⁾ بل هي شيء آخر ينبغي البحث عنه. وقد يجد المفسر في الأبحاث التاريخية ما قد ينير طريقه ويقربه من ذلك المظروف القرآني.

وما دما نتحدث عن الظروف والمظاريف، لا بد من الإشارة إلى الظروف اللغوية التي استخدمها القرآن أوعية: فكلها من دنيا القبائل العربية مع اختلاف أصولها. على أنها وظفت توظيفاً جديداً وسخرت لاستيعاب الوحي، فالظروف قديمة معروفة لدى العرب والمظاريف جديدة أثارت حفيظتهم. فالسؤال المطروح مضمونه هل تمكن عرب الجاهلية من إدراك المظاريف القدسية ؟ وهل استطاع المفسرون الوقوف على كامل مفاهيمها وحقائقها ؟ الثابت أنهم استعانوا بما كان متوفراً لديهم مستندين إلى علوم عصرهم ومن أخطرها عندهم علوم اللغة والبيان. ومن المسالك التي تناولوها، أملاً في توفير أدوات ناجعة للتفسير، تجدر الإشارة إلى مسألة المجاز والتأويل، وقد اعتنى بها ثلة من

(22) أما صاحب التحرير والتنوير، فقد فسر دراهم بضمن وقال: إنه معرب عن الفارسية مستشهداً بالجوهرى وهو من مشاهير أصحاب المعاجم، توفي سنة 1005م. فهل أخذ العرب الدرهم عن الفرس ؟ قد يكون ! لاسيما أن الفرس عرفوا بنقودهم الفضية والأرجح أنهم تبناوا اللفظ الإغريقي.

كبار الباحثين القدامى من بينهم أبو عبيدة والفراء والجاحظ وابن قتيبة وما زالت أعمالهم وآراؤهم مفيدة جدية بفائق الاهتمام.

ولما تطورت العلوم وأحرزت مكاسب جديدة وتوفرت أدوات عمل لم يعهد لها السلف، فلا بد أن يواصل المفسرون اليوم السير على الدرب مجهزين مستعيرين بعلوم عصرهم معتبرين المكاسب العلمية التي أحرزت عليها البشرية في مختلف الميادين من لغة وتاريخ وأنثروبولوجيا ورياضيات وفيزياء وكيمياء وغيرها من العلوم الصلبة والرخوة كما يقال.

وتنبه بعض المفكرين المعاصرين إلى هذه القضية الخطيرة ومنهم الأستاذ الدكتور محمد أركون⁽²³⁾ الذي أشار إلى ضرورة القيام بدراسات وبحوث تتناول نظام اللغة العربية في ما بين القرن السادس والقرن السابع ميلاديا ويكون ذلك برصد الوثائق رصدا نظاميا وفحصها في ضوء العلوم المعاصرة وبالأدوات المتوفرة لدينا اليوم وطبقا لمنهج عقلانية يتوخاها علماء عصرنا في الأقطار التي تساهم في تقدم العلم وإثراء المعرفة. فلا يمكن الوقوف على محتوى الألفاظ العربية القرآنية دون رجوع إلى ما في الكنوز اللغوية السامية من أرض بابل إلى ربوع سبأ مرورا بكنعان.

وأشار محمد أركون إلى ضرورة الاعتناء بدراسة أساطير الشرق القديم وطقوسه وشعائره ودياناته، هذا ولا بد في رأيه من الاهتمام بقضية «أهل الكتاب»، وما تثيره من مسائل مضمونها التفاعل بين اللوح

(23) Mohamed Arkoun, Lectures du Coran, Alif-Edition de la Méditerranée, Tunis, 1991. Nous y lisons (p.37) : «Le Coran est un de ces textes de portée universelle, sur lequel on a trop dit, trop écrit et qui demeure, cependant mal connu».

المحفوظ والكتب التي أنزلت للناس. فالعلاقة متينة بين التوراة (24) والإنجيل (25) والقرآن.

(24) أشار القرآن الكريم إلى التوراة في السور التالية : آل عمران، المائدة، الأعراف، التوبة، الفتح، الصف، الجمعة.

(25) أما الإنجيل، فقد ورد ذكره في السور التالية : آل عمران، المائدة، الأعراف، التوبة، الفتح، الحديد. ولما تعرض صاحب التحرير والتنوير إلى لفظ انجيل قال :
«وأما الإنجيل فاسم للوحى الذي أوحى به إلى عيسى عليه السلام فجمعه أصحابه. وهو اسم معرب قيل من الرومنة وأصله (إنجيليوم) أي الخبر الطيب. فمدلوله مدلول اسم الجنس، ولذلك أدخلوا عليه كلمة التعريف في اللغة الرومية، فلما عربها العرب أدخلوا عليه حرف التعريف، وذكر القرطبي عن الثعلبي أن الإنجيل في السريانية وهي الآرامية (أنكليون) ولعل الثعلبي اشتبه عليه الرومية بالسريانية، لأن هذه الكلمة ليست سريانية وإنما لما نطق بها نصارى العراق ظنوها سريانية، أو لعل في العبارة تحريفاً وصوابها اليونانية وهو في اليونانية (أووانيليون) أي اللفظ الفصحى قد حاول بعض أهل اللغة والتفسير جعله مشتقاً من النجل وهو الماء الذي يخرج من الأرض، وذلك تصسف أيضاً. وهمزة الإنجيل مكسورة في الأشهر ليجري على وزن الأسماء العربية، لأن إفعيلاً موجود بقلة مثل إيزيم. وربما نطق به بفتح الهمزة وذلك لا نظير له في العربية.. (انظر التحرير والتنوير، الجزء الثالث، الدار التونسية للنشر، تونس، سنة 1984، ص. 149).
والثابت أن للمسيحيين أنجيل عديدة اعترفت الكنيسة البابوية الكاثوليكية بأربعة منها وهي أناجيل متى ويحنى ومرقس ولوقا. أما عن أصل الإسم فهو اغريقي ويتركب من لفظين اثنين وهما : eu ويعني الطيب الحسنى. واللفظ الثاني هو Angellion ويكتب Aggllion بمعنى الخبر. النبأ. فكلمة Euangelion وتكتب Euaggellion تعني البشرى. النبأ الحسن. فالإنجيل بشرى والإنجيليون هم المبشرون.

أما التوراة فقد عرفه صاحب التحرير والتنوير كما يلي :
«والتوراة اسم للكتاب المنزل على موسى عليه السلام. وهو اسم عبراني أصله طوراً بمعنى الهدي. والظاهر أنه اسم للألواح التي فيها الكلمات العشر التي نزلت على موسى عليه السلام في جبل الطور. لأنها أصل الشريعة التي جاءت في كتب موسى، فأطلق ذلك الإسم على جميع كتب موسى. واليهود يقولون (سفر طوراً) فلما دخل هذا الإسم إلى العربية أدخلوا عليه لام التعريف التي تدخل على الأوصاف والنكرات لتصير أعلاماً بالغلبة : مثل العقبة. ومن أهل اللغة والتفسير من حاولوا توجيهها لاشتقاقه اشتقاقاً عربياً، فقالوا : إنه مشتق من الوري هو الوقود. بوزن تفعلة أو فوعلة. وربما أقدمهم على ذلك امرئ : أحدهما دخول حرف التعريف عليه، وهو لا يدخل على الأسماء العجمية، وأجيب بأن لا مانع من دخولها على العرب كما قالوا : الإسكندرية، وهذا جواب غير صحيح. لأن الإسكندرية وزن عربي إذ هو نسب إلى أسكندر. فالوجه في الجواب أنه إنما ألزم التعريف لأنه معرب عن اسم بمعنى الوصف اسم علم فلما عربوه ألزموه اللام لذلك.(انظر التحرير والتنوير، الجزء الثالث، ص. 148).

والثابت أن كلمة «توراة» مشتقة من مادة يرى والياء هنا أصلها واو. وهي المادة التي نجدها عند العامة في صيغة ورى ومن ذلك وراء الشيء جعله يراه ويتبينه حتى كأن التوراة أنزلت لتمكن العباد من الرؤية ويقول المثل الشعبي «يرحم من قروور».

فينبغي أن تكون علوم العصر فوائيس تنير طريق المفسر⁽²⁶⁾. فهل يمكن اليوم تناول قضية خلق الإنسان دون اعتبار ما وصلت إليه الأبحاث والدراسات الإنثروبولوجية والجيولوجية والأثرية؟ فلا بد للمفسر أن يكون محيطا بكل ما يتعلق بظهور السلالات البشرية من الإنسان القائم إلى سلالة كرومونيون مرورا بالسلالات الأخرى، ومن أهمها سلالة نياندرتال⁽²⁷⁾.

وفي ما يتعلق بالتاريخ، فلا بد من التعرف على الحضارات القديمة التي احتك بها العرب. ورأينا كيف يكون الموقف مع قضية دراهايم يوسف. أما عن جهنم، فكان لا بد من الرجوع إلى العهد القديم لتتعرف إلى أصل هذه التسمية.

فبالاستناد إلى مثل هذه العلوم وباستعمال مثل هذه الأدوات قد يمكن للمفسر الوصول إلى بعض ما في الظروف القرآنية، كلمات كانت أو أساطير أو صورا أو غيرها. وما دام الإنسان محدود القدرات، فقد يعسر عليه الوقوف على المظروف كاملا. فأمله أن يقترب من حقيقة صعبة المنال وليبق باب الاجتهاد مفتوحا. على أن القراءة لا تكون صائبة إلا في ضوء علوم العصر وتفاعلا مع حاجيات المجتمع. وعلى الإنسان، مهما عظم شأنه، ومهما تعددت قدراته، أن يكون متواضعا مؤمنا أنه لا ولن يستطيع إدراك الحقيقة كلها.

(26) هكذا نتبين أن تفسير النصوص الدينية يفرض الإحاطة بما أدركته العلوم الإنسانية والعلوم الطبيعية : فهي الفوائيس التي بدونها يجن الليل فلا يرى المفسر شيئا ولا يأتي بالإضافة المطلوبة.

(27) Camille Arambourg, La genèse de l'humanité (Que-sais-je?) Paris, 1969. A. Gragueb et A-Mtimet, La Préhistoire en Tunisie et au Maghreb, Tunis, 1989.

فلا شك أن في حوار الحضارات والأديان فائدة للإنسان جمة. فبالحوار يتعرف الإنسان على أخيه الإنسان وقد يتعرف على دينه بمعرفة ديانة الآخر واحترامها وتقدير ما منت به على الإنسان من قيم سامية ترفع مرتبته وتمكنه من كسب إنسانيته وحمايتها. إن بني آدم جميعهم يلتقون وأعناقهم مشرئبة نحو القدس (بالقاف المكسورة) فلا فرق بين إنسان وآخر : فهذا وذاك مسكون بالقدس والقدس عند هذا وذاك قوة خالقة شاءت أن يكون الكون كما هو بمواصفاته وقوانينه ونواميسه. ففي هذا المستوى، لا فرق بين إنسان البداية وإنسان اليوم والغد : فكلاهما يشعر بسلطان القدس أي بسلطان قوة تعددت أسماؤها بتعدد الأقوام والأجيال والأزمنة ومن تلك الأسماء إيل⁽²⁸⁾ وقد ورد في عديد الرقم الرافدية والكنعانية. وفي المادة التي منها سوي اسم إيل معنى القوة⁽²⁹⁾ وفي المادة التي منها صيغ لفظ دين معنى القوة أيضا. فكلنا نؤمن بوجود القوة اعترافا بها واتقاء شرها واستدرارا لعطفها. وما العبادة إلا تعبير عن تلك المواقف وبالتعبير نسعى لربط الصلة مع القوة.

هكذا تتوحد البشرية في شعورها ووعيتها بالقوة وتختلف الأقوام والأمم في اختيار الوسيلة التي بها تسعى إلى الاتصال بها. فالقوة واحدة والأديان طرق متعددة مختلفة متشابهة تجعل الأعناق مشرئبة ترشح الأجلال والخوف والأمل. فالبشرية، مهما اختلفت وسائلها في التفاوض مع القوة، فهي تلتقي في إيمانها بها. فالقدس واحد والأديان عديدة. فهدف البشرية واحد وطرق إدراك الهدف عديدة وكلها مرضية. فلا فرق بين

(28) André Caquot, Maurice Sycer et Andrée Herdner, Textes Ougaritiques, tome I, mythes et légendes, Paris, 1974, pp. 55-68.

(29) انظر سفر التكوين، الإصحاح 31، الآية 29 حيث نقرأ ماييلي (منقولاً بالحرف العربي) : «يش لآل يدي لعسوت عمكم رع.. ومعناه : في قدرة يدي أن أصنع بكم شرا. وهكذا نتبين أن في لفظ آل معنى القوة والقدرة.

دين ودين. وقد عبر عن ذلك الأفريقي القرطاجي ترتوليانوس في بداية القرن الثالث قبل ميلاد المسيح حيث قال :

«إنه حق بشري وحق طبيعي أن يعبد كل امرئ ما يشاء : فدين هذا لا يضير بذاك ولا يفيد : فليس لدين حق السيطرة على دين».

هكذا دعا رجل الكنيسة في قرطاج إلى التسامح بين الأديان. وهذه المعاني جميعها جاءت آيات بينات في القرآن الكريم وفي الحديث النبوي الشريف فلنعمل، نحن المسلمين، ونهتد بديننا الحنيف ونشهد أننا مسلمون نقتدي بنور الإسلام ونحترم الأديان الأخرى، إبراهيمية كانت أو أمية، تأسياً بمحمد عليه الصلاة والسلام. فنحن نؤمن بضرورة التعارف والحوار بين الأديان. وتجسيدا لهذه القناعة، أحدث الرئيس زين العابدين بن علي رئيس الجمهورية التونسية وفقه الله وسدد خطاه إلى ما فيه خير تونس والأمة كرسيا جامعيا لحوار الحضارات والأديان وذلك بمناسبة الاحتفال بالذكرى الرابعة عشرة للتحويل في 7 نوفمبر 2001 حيث قال : «وانطلاقا من قناعاتنا الراسخة بأن أمام الإنسانية على اختلاف أديانها وحضاراتها، مجالات واسعة للعمل من أجل سعادة الإنسان وأمنه واستقراره، فإننا نأذن، اليوم، بإحداث «كرسي جامعي لحوار الحضارات والأديان، يساهم في النهوض بهذه الرسالة النبيلة».